علاقة المصطفى صلى الله عليه وسلم بربه

د: أكرم كساب

(1)

لماذا الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم

د : أكـرم كـسـاب

القارئ لسيرة النبي صلى الله عليه وسلم يعجب كل العجب حين يطالع حياته صلى الله عليه وسلم بطولها وعرضها؛ ليخرج في النهاية بحقيقة تؤكد أن محمداً صلى الله عليه وسلم كان عبداً ربانياً، خالصاً لله تعالى، كأنه صلى الله عليه وسلم لم يكن له في حياته كلها إلا أن يتعبد لربه، وليس في هذا أدنى عجب إذا تذكرنا قوله تعالى:(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) الأنعام: 162، 163).

ولله در عبد الله بن رواحة حين قال:

أَتانا رسول الله يتلـو كـتـابَـه كما لاح مشهورٌ من الفجر ساطُع

يبيت يجافي جنبه عن فـراشـه إذا استَثقَلَت بالمشركين المضاجع

أَتى بالهدى بعد العمى فقلـوبُـنـا به مُوقِنَاتٌ أَن مـا قـال واقـع

وليس الهدف من هذه الموضوعات مجرد سرد قصص نبوي من خلال كتب الحديث والتفسير والسيرة، وإنما قصدنا من خلال هذا العرض أن ندرك مدى عمق هذه العلاقة التي بنيت من أول يوم على الإخلاص لله وحده، والعمل لمرضاته، والسعي لتعبيد الخلق لله ربالعالمين.

ولا شك أننا مطالبون بجعل النبي صلى الله عليه وسلم أنموذجا نقتدي به، وأسوة صالحة نترسم خطاها، وقد جاء الأمر بذلك في القرآن حيث يقول ربنا جلّ وعلا:(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً) (الأحزاب:21).

شبهة وردّها:

وقد يلقي البعض بشبهة مفادها: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خلق الله لمهمة هيأه لها إذ (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ)(الأنعام: 124)، ومن ثمّ فإن الله صنعه على عينه كما صنع موسى على عينه، وهو جدير بقوله تعالى:(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي)(طـه: 39).

ولا شك أن ما ذكر هو عين اليقين وكبد الحقيقة، ولكن الله سبحانه يريد لنا أن نتأسى برسوله صلى الله عليه وسلم فيما هو في مقدور البشر، على أن يبذل البشر طاقتهم في سبيل الوصول إلى أمروا به وهذا هو المقصود من قوله تعالى:(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) (البقرة:286)، وقوله:(لا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) (الأنعام:152) و(الأعراف:42) وقوله:(وَلا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) (المؤمنون:62).

قال الطبري: أي لا يكلف الله نفسا فيتعبدّها إلا بما يسعها، فلا يضيّق عليها، ولا يجهدها. (تفسير الطبري/ ج154/3).

وقال رشيد رضا والمعنى أنَّ شأنه تعالى وسنته في شرع الدّين ألا يُكلّف عباده ما لا يطيقون(تفسير المنار / ج145/3).

وقال صاحب العقيدة الطحاوية: ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم، وهو تفسير لا حول ولا قوة إلا بالله.(شرح العقيدة الطحاوية/ ابن أبي العز الحنفي/ ص 444).

وفي هذه الكلمات سنحاول إن شاء الله إلقاء الضوء على ملامح هذه العلاقة النبوية، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

(2)

أولا: بحث دؤوب عن الإله الحق

د : أكـرم كسـاب

لم تكن علاقة النبي صلى الله عليه وسلم وليدة اللحظات الأولى للوحي المبارك؛ حين ضمه جبريل عليه وقال له: اقرأ، فقال: «ما أنا بقارئ» فغطه ثانية وثالثة ثم أرسله فقال: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ علم الإنسان ما لم يعلم) [العلق: 1: 5] (رواه البخاري في الشروط (2732)). إنما كان صلى الله عليه وسلم يبحث – كما بحث غيره من الحنفاء– عن خالق هذا الكون ورازقه ومدبره، كان صلى الله عليه وسلم يرى هذا الكون الفسيح بسمائه ذات الأبراج، وأرضه ذات الفجاج، وبحاره ذات الأمواج... فلم ير في تلك الآلهة التي عبدتها قريش إلا العجز والضعف، فهي لا تبصر ولا تسمع، ولا تضر ولا تنفع، وحين استحلفه بحيرا بها قائلا: يا غلام أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه - وإنما قال له بحيرى ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما - فزعموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: لا تسألني باللات والعزى شيئا، فوالله ما أبغضت شيئا قط بغضهما. فقال له بحيرى: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال له: سلني عما بدا لك.(البداية والنهاية/ ابن كثير/ ج2/ 284).

ومما يؤكد هذا ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت:"أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فَلَق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه –وهو التعبد– الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء.

ولهذا قال له ربه عن هذه المرحلة: (وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى) (الضحى:7).

وليس المقصود بالضلال هنا البعد عن الحق والذهاب إلى الباطل، وإنما المقصود هنا: الذهاب عن علم حقيقة الأمر المطابقة للواقع، يقول صاحب (أضواء البيان): الضلال يطلق في القرآن واللغة العربية ثلاثة إطلاقات:

الأول: الضلال بمعنى الذهاب عن طريق الحق إلى طريق الباطل. ومنه قوله تعالى: {غيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ}.

الثاني: الضلال بمعنى الهلاك والغيبة والاضمحلال، ومنه قوله تعالى: {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ}.

الثالث: الضلال بمعنى الذهاب عن علم حقيقة الأمر المطابقة للواقع، ومنه بهذا المعنى قوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى}.(أضواء البيان(ج 19 / ص 316).

ويوضح هذا سيد قطب فيقول: لقد نشأت في جاهلية مضطربة التصورات والعقائد، منحرفة السلوك والأوضاع، فلم تطمئن روحك إليها. ولكنك لم تكن تجد لك طريقاً واضحاً مطمئناً. لا فيما عند الجاهلية ولا فيما عند أتباع موسى وعيسى الذين حرفوا وبدلوا وانحرفوا وتاهوا.. ثم هداك الله بالأمر الذي أوحى به إليك، وبالمنهج الذي يصلك به.

فهذه هي أول ميزات العلاقة بين النبي صلى الله عليه وسلم وربه، حيث كان يبحث عن العبادة الحقة حتى هداه الله إليه.

(3)

ثانيا: علاقة حب دافق

د : أكـرم كسـاب

لقد كانت علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بربه علاقة حبيب يتمنى رضا محبوبه، ووصل النبي صلى الله عليه وسلم إلى أعلى مراتب الحب، وهي التي سماها ابن القيم: الخلة، ويصفها ابن القيم (أي الخلّة) بأنها: المرتبة التي انفرد بها الخليلان إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم، والخلة هي المحبة التي تخللت روح المحب وقلبه حتى لم يبق فيه موضع لغير المحبوب. كما قيل:

قد تخللت مسلك الروح مني ولذا سمي الخليل خليلا

وهذا هو السر الذي لأجله - والله أعلم - أمر الخليل بذبح ولده، وثمرة فؤاده، وفلذة كبده، لأنه لما سأل الولد فأعطيه، تعلقت به شعبة من قلبه، والخلة منصب لا يقبل الشركة والقسمة، فغار الخليل على خليله أن يكون في قلبه موضع لغيره، فأمره بذبح الولد؛ ليخرج المزاحم من قلبه. فلما وطن نفسه على ذلك، وعزم عليه عزما جازما حصل مقصود الأمر، فلم يبق في إزهاق نفس الولد مصلحة، فحال بينه وبينه وفداه بالذبح العظيم. (مدارج السالكين (3/28- 31).

ولقد كان أكبر همّ النبي صلى الله عليه وسلم أن يزيده الله من هذا الحب الفيّاض، لذا نراه يرفع صوته مناديا مولاه بقوله -كما رواه أبو داوود-:" اللهم ارزقني حبك، وحب من ينفعني حبه عندك. اللهم ما رزقتني مما أحب، فاجعله قوة لي فيما تحب. اللهم ما زويت عني مما أحب، فاجعله فراغا لي فيما تحب".

وقد فطن النبي لهذا الدعاء من تكرار أخيه دواود له، فعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"كان من دعاء داود يقول:اللهم إنى أسألك حبك، وحب من يحبك، والعمل الذى يبلغنى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلى من نفسى وأهلى، ومن الماء البارد".

وكان من دعائه صلى الله عليه وسلم:"اللهم إنى أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لى وترحمنى، وإذا أردت فتنة قوم فتوفنى غير مفتون، أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب عمل يقرب إلى حبك".

وروي عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو:"اللهم اجعل حبك أحب الأشياء إلي، وخشيتك أخوف الأشياء عندي، واقطع عني حاجات الدنيا بالشوق إلى لقائك، وإذا أقررت أعين أهل الدنيا من دنياهم، فأقرر عيني من عبادتك".

ويزداد هذا الحب والشوق يوما وراء يوم، وساعة بعد ساعة، ولحظة بعد لحظة فتراه يقول كما في المسند عند أحمد:" اللهم بعلمك الغيب، وقدرتك على الخلق؛ أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي، أسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وكلمة الحق في الغضب والرضا، والقصد في الفقر والغنى، ولذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك".

ولما كان الشوق يزداد يوما بع يوم، كانت أمنية اللقاء تكبر ساعة بعد ساعة، ولهذا لما جاءه صلى الله عليه وسلم التخيير بين الرفيق الأعلى والخلد في الدنيا؛ كان لقاؤه بربه أحب، وقال- كما عند البخاري-:"اللهم الرفيق الأعلى".

(4)

ثالثا: عبادة تقوي الحب وتزيده

د : أكـرم كسـاب

الحب الصادق لا بد أن يترجم إلى موافقة المحبوب فيما يريد، وإلا كان إدعاء. قال الفضيل: يقول الله عز وجل: كذب من ادعى محبتي، فإذا جنه الليل نام عني، أليس كل حبيب يحب الخلوة بحبيبه، ها أنا مطلع على أحبابي إذا جنهم الليل جعلت أبصارهم في قلوبهم، ومثلت نفسي بين أعينهم، فخاطبوني على المشاهدة، وكلموني على حضوري، غدا أقر عين أحبابي في جنتي:

تنام عيناك وتشكو الهوى لو كنت صبا لم تكن نائما

قلوب المحبين جمرة تحت فحمة الليل، كلما هب عليها نسيم السحر التهبت.

وقد كان حب النبي صلى الله عليه وسلم لربه حبا صادقا، ترجمته العبادة والذكر، وكانت عبادته صلى الله عليه وسلم لربه سبحانه تقوي الحب إذا خفت، وتزيده إذا قلّ، لذا رأيناه صلى الله عليه وسلم يقول: " حُبب إليّ الطيب والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة".(رواه أحمد).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا حضرت الصلاة قال:"أرحنا بها يا بلال" (رواه أبو داود). إن الحب الصادق لا بد أن يترجم إلى موافقة المحبوب فيما يريد، وإلا كان إدعاء.

ولقد دفع هذا الحب رسول صلى الله عليه وسلم أن يستعذب الألم الذين يلقاه في عبادته، فإذا صلى أطال صلاته حتى يشفق عليه من يراه، إنه يقوم حتى تتورم قدماه فإذا سئل من كثرة القيام مع مغفرة ربه قال: "أفلا أكون عبدا شكورا". (متفق عليه).

وهذا حذيفة رضي الله عنه يصور لنا حادثة وقعت له مع النبي صلى الله عليه وسلم، صلى فيها مع النبي صلى الله عليه وسلم قيام ليلة، استصعب فيها حذيفة الأمر، لكن النبي صلى الله عليه وسلم استعذبه، فعن حذيفة أنه: صلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فلما دخل في الصلاة قال:" الله أكبر ذو الملكوت والجبروت والكبرياء والعظمة" قال: ثم قرأ البقرة، ثم ركع، وكان ركوعه نحوا من قيامه، وكان يقول: سبحان ربي العظيم، ثم رفع رأسه، فكان قيامه نحوا من ركوعه، وكان يقول: لربي الحمد، لربي الحمد، ثم سجد، فكان سجوده نحوا من قيامه، وكان يقول: سبحان ربي الأعلى، سبحان ربي الأعلى، ثم رفع رأسه فكان

ما بين السجدتين نحوا من السجود، وكان يقول: رب اغفر لي، رب اغفر لي، قال: حتى قرأ البقرة وآل عمران والنساء والمائدة أو الأنعام. (رواه أحمد).

أرأيت مثل هذا الأمر؟! إنه صلى الله عليه وسلم يقرأ السبع الطوال، مبتدأ بالبقرة ومنتهيا بالأنفال والتوبة، مرورا بآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف.

نعم هكذا كانت صلاته؛ طولا وخشوعا، وتذللا وخضوعا، ورقة وتبتلا.

وأما صومه فكان محبا له غاية الحب، حتى إنه ليواصل اليوم باليوم، واليومين، وينهى أصحابه عن الوصال فيقولون: إنك تواصل يا رسول الله فيقول:"إني لست كهيئتكم، إني يطعمني ربي ويسقين".(متفق عليه).

وهكذا حجه... وكل عبادة من العبادات إنما كانت تقوي الحب وتزيده..

(5)

رابعا: معرفة أثمرت الخوف

د : أكرم كساب

وقد أثمرت معرفة النبي صلى الله عليه وسلم بربه خوفا وهيبة، فكان صلى الله عليه وسلم في عبادته يخشاه كل الخشية، ويخافه كل الخوف.

وقد قيل: ما فارق الخوف قلباً إلا خَرِب.

وقال آخر: إذا سكن الخوفُ القلوبَ أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول في دعائه: " يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك. فقيل له: يا نبي الله آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا فقال صلى الله عليه وسلم: " نعم إن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل يقلبها كيف شاء ".(رواه أحمد).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا أقسم قال: " لا ومقلب القلوب ".(رواه البخاري).

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم أذا رأى غيما أو ريحا عرف الخوف في وجهه، تقول عائشة كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيما أو ريحا عرف الخوف ذلك في وجهه فقلت: يا رسول الله الناس إذا رأوا الغيم فرحوا، ورجوا أن يكون فيه مطر، وإذا رأيته عرف في وجهك الكراهة، فقال:" يا عائشة! ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب، وقد عذب قوم بالريح"(متفق عليه).

ولما زار عبد الله بن الشخير رسول الله وصفه فقال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقام يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل. (رواه أحمد).

وما أجمل ما قصّه لنا عطاء فيقول: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة فقالت لعبيد بن عمير: قد آن لك أن تزورنا! فقال: أقول يا أمّه كما قال الأول: زر غبا تزدد حبا. قال: فقالت: دعونا من رطانتكم هذه. قال ابن عمير: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: "يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي" قلت: والله إني لأحب قربك، وأحب ما سرك. قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي. قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته، قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض. فجاء بلال يؤذنه بالصلاة. فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال:" أفلا أكون عبدا شكورا، لقد نزلت عليّ الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، { إن في خلق السموات والأرض } الآية كلها.(رواه ابن حبان).

ولقد كان صلى الله عليه وسلم حريصا كل الحرص ألا يسبقه أحد في هذا الخوف أو هذه الخشية، ولما همّ بعض الصحابة بترك بعض المباحات رجاء خشية الله قال صلى الله عليه وسلم:"أما إني أخشاكم لله وأتقاكم له...."(متفق عليه).

وكان خوفه صلى الله عليه وسلم من ربه يترقى به حتى إنه ليخاف أن يسيء إلى مشرك فينالـه عقاب الله، فعن عطاء، قال: كان سهيل بن عمرو رجلا أعلم من شفته السفلى، فقال عمر بن الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أسر ببدر: يا رسول الله، انزع ثنيتيه السفليين فيدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيبا بموطن أبدا، فقال: لا أمثل، فيمثل الله بي". (البداية والنهاية/ ج3/ ص311).

(6)

خامسا: في العبادة سعادة

د : أكـرم كسـاب

ولم يكن رسول الله يتململ من هذه العبادة التي يقوم بها لربه؛ وإنما كان يشعر بفيض من السعادة يغمر قلبه، وهو يعلمنا أن السعادة في كل أنواع العبادات التي يقوم بها العبد. روى البخاري ومسلم عن الأسود بن قيس سمعت جندبا يقول: بينما النبي صلى الله عليه و سلم يمشي إذ أصابه حجر فعثر فدميت إصبعه فقال:" هل أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت".

ومن ذلك، أنه صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى الطائف وحدث سادتها من بني عمرو، كان بنو عمرو لئامًا، فلم يكتموا خبر الرسول صلى الله عليه وسلم بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتى دمت عقباه وتلطخت نعلاه، وسال دمه الزكي على أرض الطائف... هنا توجه صلى الله عليه وسلم إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيمانًا ويقينًا، ورضى بما ناله في الله، واسترضاء لله: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرفت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله". تاريخ الطبري (554/1).

إن الناظر لهذا كله يدرك أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يستعذب هذه الطاعة، ويتذوق حلاوتها، وهذا مصداق قوله صلى الله عليه وسلم:" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان.." متفق عليه.

وعن عبد الله بن معاوية الغاضري من غاضرة قيس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم:" ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان؛ من عبد الله وحده وأنه لا إله إلا الله، وأعطى زكاة ماله طيبة بها نفسه، رافدة عليه كل عام، ولا يعطي الهرمة، ولا الدرنة، ولا المريضة، ولا الشرط اللئيمة، ولكن من وسط أموالكم، فإن الله لم يسألكم خيره، ولم يأمركم بشره". رواه أبو داوود.

وقد ذكر ابن القيم قوله صلى الله عليه وسلم:" ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد رسولا" رواه مسلم ، وقوله:" من قال حين يسمع المؤذن: أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، رضيت بالله ربا، وبمحمد رسولا، وبالإسلام دينا. غفر له ذنبه" رواه مسلم ، ثم

قال: وهذان الحديثان عليهما مدار مقامات الدين، وإليهما ينتهي. وقد تضمنا الرضى بربوبيته سبحانه، وألوهيته، والرضى برسوله والانقياد له، والرضى بدينه والتسليم له، ومن اجتمعت له هذه الأربعة: فهو الصديق حقا. وهي سهلة بالدعوى واللسان، وهي من أصعب الأمور عند الحقيقة والامتحان، ولا سيما إذا جاء ما يخالف هوى النفس ومرادها. من ذلك تبين أن الرضى كان لسانه به ناطقا فهو على لسانه لا على حاله. مدارج السالكين/ ج 2 / ص 172).

إن فرقا كبيرا بين من يأتي بالعبادة على كره، ويتمنى الفراغ منها على عجل. ومن يأتي بها متلذذا بها، فرحا بوجودها، حريصا على استمرارها وبقائها.... وهذا هو محمد صلى الله عليه وسلم...

(7)

سادسا: علاقة مستمرة

د : أكـرم كسـاب

نعم لقد كانت عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستمرة لا تنقطع، ولما لا؛ وقد قال له ربه:{وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ} {99}.

ولهذا كان صلى الله عليه وسلم له في كل حركة ذكر، وفي كل عمل دعاء، حتى عند نومه، وعند أرقه وعند استيقاظه.

لقد حلت العبادة في قلب النبي صلى الله عليه وسلم فأحالته قلبا ربانيا، مما جعل هذه الربانية تفوح على لسانه ذكرا دائما لله ربه، فإذا خلد من ومه أو استيقظ فله دعاء وذكر. وإذا خلع ثيابه أو لبس فله دعاء وذكر. وإذا دخل الخلاء أو خرج فله دعاء وذكر.... وهكذا.

وإن من أهم مميزات الإسلام أنه دين عبادة مستمرة وطاعة دائمة، ولا تنتهي العبادة فيه بانتهاء شعيرة، أو الفراغ من فريضة، بل العبادة مستمرة مع الإنسان من لحظة تكليفه، إلى لحظة تكفينه، وقد قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم: [وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ](الحجر: 99).

بل العبودية ـ كما يؤكد ابن القيم- تستمر بعد الممات: بل عليه في البرزخ عبودية لما يسأله الملكان: من كان يعبد؟ وما يقول في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويلتمسان منه الإجابة.

وعليه عبودية أخرى يوم القيامة، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود فيسجد المؤمنون ويبقى الكفار والمنافقون فلا يستطيعون السجود، فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصباً. (تهذيب مدراج السالكين / ص 81).

ومن هنا كان النبي صلى الله عليه وسلم يحذر من انقطاع العمل ويوضح أن: " أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل "(متفق عليه).

وحين دخل النبي صلى الله عليه وسلم على عائشة ـ رضي الله عنها ـ ووجد عندها امرأة سأل:" من هذه؟ قالت: فلانة؛ تذكر من صلاتها، قال: مه عليكم بما تطيقون، فوالله لا يمل الله حتى تملوا، قالت عائشة: وكان أحب الدين إليه ما داوم عليه صاحبه"(متفق عليه).

وقد رأيناه النبي صلى الله عليه وسلم يحذر من هذا التشدد الذي قد يفضي إلى الانقطاع فيقول:" لكل عمل شرّة، ولكل شرّة فترة فمن كانت شرته إلى سنتي فقد أفلح ومن كانت فترته إلى غير ذلك فقد هلك" رواه أحمد.

ولهذا رأينا النبي صلى الله عليه وسلم يقول:" إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق" رواه أحمد. قال صاحب (عمدة القاري) في شرح صحيح البخاري: وكأنه عليه السلام خاطب مسافرا يقطع طريقه إلى مقصده، فنبهه على أوقات نشاطه التي ترك فيها عمله، لأن هذه الأوقات أفضل أوقات المسافر، والمسافر إذا سار الليل والنهار جميعا عجز وانقطع، وإذا تحرى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة. وقال الخطابي: معناه الأمر بالاقتصاد في العبادة، أي لا تستوعبوا الأيام ولا الليالي كلها بها؛ بل أخلطوا طرف الليل بطرف النهار، وأجمعوا أنفسكم فيما بينهما، لئلا ينقطع بكم.

ولهذا استمر النبي صلى الله عليه وسلم في عبادته لربه طيلة حياته، ولم يمتنع عنها حتى وهو يطالع سكراته الموت، وكان من آخر ما قال:" لا إله إلا الله إن للموت لسكرات" رواه الطبراني في الكبير.

(8)

سابعا: توسط وتوازن في العبادة

د : أكـرم كـسـاب

ومع هذا لم تكن عبادته صلى الله عليه وسلم لربه لتطغى على حق من حقوق الآخرين، وإنما كان يعطي كل ذي حق حقه، وانظر إلى ما قاله للثلاثة رهط الذي جاءوا إلى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألوهن عن عبادة النبي:"... أيها الناس! إنما أنا أعلمكم بالله وأخشاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني". متفق عليه.

ولهذا عاتب عبد الله بن عمرو حين علم تضيعه لحقوق الآخرين بسبب عبادته، وأمره بالتوسط والاعتدال ثم قال له:" فإن لزوجك عليك حقا، ولزورك عليك حقا، ولجسدك عليك حقا". متفق عليه.

وهو كذلك ما فعله مع سعد بن أبي وقاص، يقول سعد: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع، من وجع اشتدَّ بي، فقلتُ: إني قد بلغ بي من الوجع، وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة، أفاتصدَّق بثلثي مالي؟ قال: "لا". قلتُ: بالشَّطر؟ فقال: "لا". ثم قال: "الثلث، والثلث كبير". متفق عليه

وهو ما فعله مع رجل يسمى: أبا إسرائيل، فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم فسأل عنه فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه". رواه البخاري.

ولم يقبل النبي صلى الله عليه وسلم من المرء أن يلزم نفسه طاعة لم تفرض عليه، فنهى عن النذر وقال:" لا تنذروا؛ فإن النذر لا يغني عن القدر شيئا وإنما يستخرج من البخيل" رواه مسلم.

وحين بالغت زينب في صلاتها واتخذت حبلا تتعلق به إذا فترت، قال:" حلّوه ليصلّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليرقد". متفق عليه.

ولكي يوازن النبي صلى الله عليه وسلم بين متطلبات الروح والجسد نهى صلى الله عليه وسلم أصحابه عن الوصال؛ وإن كان هو يواصل، وقال لهم:" إنما أبيت يطعمني ربي ويسقيني". متفق عليه.

ومن هذا التوازن أيضا أنه راعى صلى الله عليه وسلم أيام الأعياد؛ التي أيام فرح وأنس وسعادة فنهى عن صيامها، عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " نهى عن صيام يومين: يوم الأضحى ويوم الفطر". رواه مسلم.

ولهذا عنّف النبي صلى الله عليه وسلم معاذا حين أطال صلاته وشغل الناس عن أعمالهم، فعن جابر قال: كان معاذ يصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم ثم يأتي فيؤم قومه، فصلى ليلة مع النبي صلى الله عليه وسلم العشاء، ثم أتى قومه فأمهم، فافتتح بسورة البقرة، فانحرف رجل فسلم ثم صلى وحده وانصرف، فقالوا له: أنافقت يا فلان؟ قال: لا والله؛ ولآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأخبرنه. فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله إنا أصحاب نواضح نعمل بالنهار، وإن معاذا صلى معك العشاء، ثم أتي فافتتح بسورة البقرة، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على معاذ فقال: "يا معاذ أفتان أنت؟ اقرأ بكذا واقرأ بكذا". متفق عليه.

(9)

ثامنا: غضب لحرمة الله

د : أكـرم كـسـاب

جاء في وصف هند بن أبي هالــة التميمي للنبي صلى الله عليه وسلم أنه كان (عرِق يدره الغضب) رواه الطبراني في الكبير.

ولما كان الحلم صفة محبوبة وخلقا حميدا، فقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم كما في الصحيح أن الله يحب هذا الخلق، وقد حضّ النبي صلى الله عليه وسلم عليه ورغب فيه، وكان ذلك طوراً بالكلام؛ وطوراً بالفعل والتنفيذ، فتراه يقول صلى الله عليه وسلم:" ليس الشديد بالصرعة ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب". متفق عليه.

ولكن الحلم ليس محمودا مطلقا، وإنما يحمد في مواضع، ويذم في مواضع. والمرء إذا استغضب بما يغضب الله عز وجل ورسوله وجب عليه الغضب، وقد قال الشافعي: من استغضب فلم يغضب فهو حمار.

وهذا ما كان من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي وصف عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم قالت:" ما انتقم رسول الله لنفسه في شيء قط إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم لله تعالى" متفق عليه..

ومن ثم فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يغضب حتى يصير وجهه كحب الرمان حمرة وغضباً إذا استعدي على حقوق الله، أو انتهكت حرمات الله.

وفي الصحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدري: أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان؛ مما يطيل بنا، فما رأيت النبي غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ، فقال:"يا أيها الناس إن منكم منفرين؛ فأيكم أم بالناس فليوجز، فإن من ورائه الكبير والصغير وذا الحاجة".

وحين قدم صلى الله عليه وسلم على عائشة من سفر وقد سترت سهوةً لها بقرام فيه تماثيل هتكه وتلون وجهه ثم قال: يا عائشة أشد الناس عذاباً عند الله يوم القيامة الذين يضاهون خلق الله". متفق عليه.

ويدخل يوماً صلى الله عليه وسلم المسجد فيرى نخامة في القبلة فيشق ذلك عليه حتى رؤي في وجهه، ثم قام فحك النخامة بيده. متفق عليه.

وحين علم النبي صلى الله عليه وسلم من عمه العباس بن عبد المطلب أن قريشا إذا لقي بعضهم بعضا لقوهم ببشر حسن، وإذا لقوا بني عبد المطلب لقوهم بوجوه لا

يعرفونها، غضب النبي غضبا شديدا وقال:" والذي نفسي بيده لا يدخل قلب الرجل الإيمان حتى يحبكم لله ولرسوله".

ولما اجترئ أسامة بن زيد وكلم الرسول متشفعاً في المرأة المخزومية التي سرقت غصب على أسامة وقال: أتشفع في حد من حدود الله تعالى ". متفق عليه.

ويظهر غضبه واضحاً جلياً حين يتطاول أبو ذر على أخيه بلال قائلاً له: يا ابن السوداء فيغضب النبي صلى الله عليه وسلم ويقول له:" أسببت فلانا؟". قلت: نعم. قال:" أفنلت من أمه؟" قلت: نعم. قال:" إنك امرؤ فيك جاهلية ".

وهذا هو دور كل مسلم أن يكون غضبه لله، وأن يظهر هذا الغضب إذا انتهكت حرمات الله، أو نال أحد من مقدسات الإسلام، أو بني الإسلام... وما أكثر ذلك الآن.

(10)
تاسعا: تحبيب خلقه إليه
د : أكـرم كسـاب

الناس في دعوتهم إلى الله تعالى أنواع: منهم من يحبب الله في خلقه، ومنهم من يقنط الخلق من الله، منهم من يخوف الناس من الهلكة؛ فربما أفزعهم وآيسهم، ومنهم من يرجّي الناس في رحمة الله تعالى، منهم من يجعل الله في نظر خلقه بأنه منتقم جبار، سريع العقاب شديد العذاب، ومنهم من يجعل الله عند خلقه تواب رحيم وودود لطيف، منهم من يأخذ بسوط الترهيب، ومنهم من يأخذ بكف الترغيب.

والخير أن يجمع المرء بين الأمرين.

وقد كان من كلام الصديق لعمر رضي الله عنهما: ألم تر أن الله أنزل الرغبة والرهبة، لكي يرغّب المؤمن فيعمل، ويرهّب فلا يلقي بيده إلى التهلكة، وهذا ما قاله ابن عطاء الله في حكمه حين قال: لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزعج، أو قلق مشوق.

وقد أحسن ربيب بيت النبوة علي حين وصف العالم كل العالم بقوله: من لم يؤيس عباد الله من روح الله، ولم يؤمنهم مكر الله.

وهذا هو هدي النبي صلى الله عليه وسلم يُرغب قبل أن يُرهب، وهو في هذا إنما يريد أن يحبب الخلق في الخالق، ويقرب العبد من المعبود، ويطمع المسلم في رحمة ربه، ويّرجّيه في جنته.

وجاء في الأثر: عن زيد بن أسلم: أن رجلا كان في الأمم مجتهداً في العبادة ويشدد على نفسه ويقنط الناس من رحمة الله تعالى ثم مات، فقال: أي رب مالي عندك؟ قال النار. قال: أي رب فأين عبادتي واجتهادي؟ قال: فيقول: إنك كنت تقنط الناس من رحمتي في الدنيا فأنا أقنطك اليوم من رحمتي.

وفي الأثر القدسي:" أن أحب عبادي إلي من حببني إلي عبادي، وأخبرهم بسعة رحمتي، وأن أبغض عبادي إلي من قنط عبادي وآيسهم من رحمتي".

وقد ورد عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلّلنا وكبّرنا، ارتفعت أصواتنا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يا أيها الناس؛ أربِعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً، إنه معكم، إنه سميع قريب، تبارك اسمه، وتعالى جدّه".

ومن وصفه صلى الله عليه وسلم لربه:" لا أحدٌ أحبُّ إليه المِدْحَةُ من الله، فلذلك مدح نفسه".

ومن أروع الأحاديث التي تبين تحبيب النبي صلى الله عليه وسلم ربه إلى خلقه؛ حديث عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على النبي صلى الله

عليه وسلم سبي؛ فإذا امرأة من السبي قد تحلب ثديها تسقي إذا وجدت صبيا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا النبي صلى الله عليه وسلم:" أترون هذه طارحة ولدها في النار؟" قلنا: لا. وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال: "لله أرحم بعباده من هذه بولدها".

ونحن جميعا بحاجة إلى غرس هذا الحب في قلوب الناس تجاه خالقهم ورازقهم سبحانه، فهو وإن كان جبارا متكبرا مهيمنا؛ إلا أنه هو الغفور الودود، البر التواب، الرحمن الرحيم، اللطيف الكريم...

(11)

عاشرا: حرص على هداية البشر

د : أكـرم كسـاب

ومن خصائص علاقة النبي صلى الله عليه وسلم لربه: حرصه على هداية البشر. والذي أعتقده أن البشرية كلها لم تر شخصا كان حريصا على إيجاد الخير وجلب النافع لها، أو درء الفاسد ودفع السوء عنها؛ كرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله واصفا هذا الرسول، موضحا هذا الحرص الشديد: {لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} (التوبة: 128). قال القرطبي: قال عبد الله بن داود الخريبي {عزيز عليه ما عنتم} قال: أن تدخلوا النار { حريص عليكم } قال: أن تدخلوا الجنة.

وقيل: حريص عليكم أن تؤمنوا.

وقال الفراء: شحيح بأن تدخلوا النار والحرص على الشيء: الشح عليه أن يضيع ويتلف.

وقال عبد العزيز بن يحيى: نظم الآية: لقد جاءكم رسول من أنفسكم، عزيز حريص، بالمؤمنين رؤوف رحيم، عزيز عليه ما عنتم، لا يهمه إلا شأنكم، وهو القائم بالشفاعة لكم، فلا تهتموا بما عنتم ما أقمتم على سنته، فإنه لا يرضيه إلا دخولكم الجنة (تفسير القرطبي/ ج8 /ص 273).

وقال سبحانه وتعالى مسليا نبيه صلى الله عليه وسلم، ومعاتبا له كثرة حرصه: (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) (الكهف:6). وقال أيضا: (لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (الشعراء:3).

قال ابن كثير: لا تهلك نفسك أسفا... أي لا تأسف عليهم، بل أبلغهم رسالة الله، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات. (تفسير ابن كثير/ ج3 / ص 99).

وقد ذكر الألوسي في سبب نزول هذه الآية: عن ابن عباس: أن عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبا جهل بن هشام، والنضر بن الحرث، وأمية بن خلف، والعاصي بن وائل، والأسود بن المطلب، وأبا البختري؛ في نفر من قريش اجتمعوا، وكان رسول الله قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة فأحزنه حزنا شديدا. (روح المعاني/ ج15 /ص 205).

وحزن النبي صلى الله عليه وسلم هنا طاعة، لكنه أفرط فيها فكان النهي، قال القرطبي: والحزن على كفر الكافر طاعة، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يفرط في الحزن على كفر قومه فنهي عن ذلك. (تفسير القرطبي/ ج4 /ص 277).

(12)

من دلائل حرصه صلى الله عليه وسلم على هداية البشر

د : أكـرم كسـاب

ذكرت في المقال السابق أن من خصائص علاقة النبي صلى الله عليه وسلم لربه: حرصه على هداية البشر، وحياته صلى الله عليه وسلم مليئة بالأدلة على ما ذكرت، ومن ذلك: ما جاء عن أنس قال: كان غلام يهودي يخدم النبي صلى الله عليه وسلم فمرض فأتاه النبي صلى الله عليه و سلم يعوده فقعد عند رأسه فقال له:"أسلم". فنظر إلى أبيه وهو عنده فقال له: أطع أبا القاسم صلى الله عليه وسلم فأسلم، فخرج النبي صلى الله عليه و سلم وهو يقول:" الحمد لله الذي أنقذه من النار".(رواه البخاري).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار، يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه، فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقحمون فيها".(متفق عليه).

وحين جاءه صلى الله عليه وسلم الطفيل بن عمرو الدوسي، وأصحابه على النبي صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا رسول الله إن دوسا عصت، وأبت فادع الله عليها. فقيل: هلكت دوس. ما كان منه صلى الله عليه وسلم إلا أن قال: "اللهم اهد دوسا، وأت بهم".(متفق عليه).

وحين أوذي صلى الله عليه وسلم مسح الدم عن وجهه وهو يقول:" اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون". (متفق عليه).

وما أجمله صلى الله عليه وسلم وأحسنه حين جاءه أعرابي يستعينه في شيء فأعطاه رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا، ثم قال: أحسنت إليك؟ قال الأعرابي: لا، ولا أجملت، فغضب بعض المسلمين وهموا أن يقوموا إليه، فأشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم أن كفوا، فلما قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ منزله؛ دعا الأعرابي إلى البيت فقال: إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلت ما قلت، فزاده رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا وقال: أحسنت إليك؟ فقال الأعرابي: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إنك جئتنا تسألنا فأعطيناك، فقلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي عليك من ذلك شيء، فإذا جئت فقلت بين أيديهم ما قلت بين يدي حتى يذهب عن صدورهم، فقال: نعم. فلما جاء الأعرابي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن صاحبكم كان جاءنا فسألنا فأعطيناه فقال ما قال، وإنا قد دعوناه فأعطيناه فزعم أنه قد رضي كذلك يا أعرابي؟ فقال الأعرابي: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: إن مثلي ومثل هذا الأعرابي كمثل رجل كانت له

ناقة فشردت عليه، فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفوراً، فقال لهم صاحب الناقة: خلوا بيني وبين ناقتي فأنا أرفق بها وأنا أعلم بها، فتوجه إليها وأخذ لها من قتام الأرض، ودعاها حتى جاءت واستجابت وشد عليها رحلها، وإني لو أطعتكم حين قال ما قال لدخل النار". (رواه البزار).

إن هذه النماذج الرائعة- وغيرها كثير-لتدلل على حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية الناس، وتعبيدهم إلى ربهم، وهذا هو المطلوب من كل أتباعه إن أرادوا أن يلحقوا به في أعلى درجات الجنة.

(13)
حادي عشر: شكر لما أنعم به
د : أكـرم كـسـاب

ومن خصائص علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بربه: شكره لما أنعم الله به عليه، فكان صلى الله عليه وسلم إذا جاءه أمر يسره خر لله ساجداً شكراً له عز وجل.

يقول أبو هريرة رضي الله عنه: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان في سفر فبدا له الفجر قال:"سمع سامع بحمد الله ونعمته، وحسن بلائه علينا، ربنا صاحبنا فأفضل علينا، عائذا بالله من النار، يقول ذلك ثلاث مرات و يرفع بها صوته". (رواه أبو داود).

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم أيضا:" رب أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر هداي إلي، وانصرني على من بغى علي، اللهم اجعلني لك شاكراً -وفي رواية: شكاراً- لك ذاكراً، لك راهباً، لك مطواعا، إليك مخبتاً، إليك أواهاً منيباً..." (رواه أبو داود).

وعلم صلى الله عليه وسلم معاذا ما يقول بعد الصلاة فقال له:" يا معاذ، والله إني لأحبك فقال معاذ: بأبي وأمي يا رسول الله ، وأنا أحبك ، فقال:" أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة، أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك"(رواه أبو داود).

وكان صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه الشكر عمليا، ومن ذلك ما رواه الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي صلى الله عليه و سلم فانطلقنا معه فلما طعم و غسل يديه ـ أو قال يده ـ قال: الحمد لله الذي يطعم ولا يطعم من علينا فهدانا وأطعمنا وسقانا وكل بلاء حسن أبلانا الحمد لله غير مودع ولا مكافىء ولا مكفور ولا مستغنى عنه الحمد لله الذي أطعم من الطعام وسقى من الشراب وكسا من العري وهدى من الضلالة وبصر من العماية وفضل على كثير ممن خلق تفضيلا الحمد لله رب العالمين".

ولله در القائل:

إذا كان شكري نعمة الله نعمة ... عليَّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف وقوع الشكر إلا بفضله ... وإن طالت الأيام واتصل العمر
إذا مس بالسراء عمَّ سرورها ... وإن مس بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه منةٌ ... تضيق بها الأوهام والبر والبحر

ولهذا لما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن كثرة عبادته، وقد غفر له ر به ما تقدم من ذنبه وما تأخر، كان جوابه:"أفلا أكون عبدا شكورا". (متفق عليه).

ولا أدل على شكره صلى الله عليه وسلم من حاله يوم أن دخل مكة فاتحا دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام، وهو واضع رأسه تواضعًا لله، حتى إن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، ونادى في أهل مكة قائلا:"ما تظنون أني فاعل بكم؟" فقالوا: خيرًا أخٌ كريمٌ وابن أخٍ كريمٍ، فقال:"لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ

يَغْفِرُ اللهُ لَكُمْ) [يوسف:92]. وقد وصف الغزالي دخول النبي صلى الله عليه وسلم مكة بقوله: على حين كان الجيش الزاحف يتقدم ورسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته تتوج هامته عمامة دسماء، ورأسه خفيض من شدة التخشع لله، لقد انحنى على رحله وبدا عليه التواضع الجمّ.. إن الموكب الفخم المهيب الذي ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم، والفيلق الدارع الذي يحف به ينتظر إشارة منه فلا يبقى بمكة شيء آمن، إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول: كيف خرج مطاردًا؟ وكيف يعود اليوم منصورًا مؤيدًا؟ وأي كرامة عظمى حفه الله بها هذا الصباح الميمون؟ وكلما استشعر هذه النعماء ازداد لله على راحلته خشوعًا وانحناء... (فقه السيرة للغزالي، ص379، 380).

هذا هو الشكر الحقيقي الذي لا ينسب فيه نصره إلى نفسه، ولا إلى قوته وعتاده، وإنما الشكر إلى المنعم سبحانه.

(14)
ثاني عشر: ثقة ويقين بما وعده ربه
د : أكـرم كـسـاب

ومن خصائص علاقة النبي صلى الله عليه وسلم بربه: ثقة ويقين بما وعده به؛ إذ لم تر الدنيا كلها أحدا بلغ من الثقة منزلا ومن اليقين مرتبة كما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسيرته صلى الله عليه وسلم مليئة بالأدلة على ذلك، خذ مثلا موقفه صلى الله عليه وسلم حين أحاط المشركون بالغار، وأصبح منهم رأي العين وارتجف الصديق صاحبه، وقال له: لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟" (رواه البخاري). وفي رواية: "اسكت يا أبا بكر، اثنان الله ثالثهما".

وفي بدر رأى النبي صلى الله عليه وسلم كثرة عدوه لكن ذلك لم يرهبه، وإنما اتجه إلى ربه يستجديه نصره، ويطالبه بتحقيق وعده، فيقول:"اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تُعبد في الأرض أبدًا»، وما زال صلى الله عليه وسلم يدعو ويستغيث حتى سقط رداؤه، فأخذه أبو بكر ورده على منكبيه وهو يقول: يا رسول البله كفاك مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعدك"، فأنزل الله عز وجل: (إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ). (رواه مسلم).

وفي رواية: فأخذ أبو بكر بيده فقال: حسبك الله، فخرج صلى الله عليه وسلم وهو يقول: (سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ) (رواه البخاري).

ثم أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يفيض من ثقته على أصحابه فيقول لهم:"والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة". ويقول:"قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض"(رواه مسلم).

ولما أثلج سعد معاذ صدر رسول الله بقوله له: فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد... سُرَّ النبي صلى الله عليه وسلم من مقالة سعد بن معاذ، ثم قال:"سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني أنظر إلى مصارع القوم".

وما أروعها ثقته صلى الله عليه وسلم حين كان يلقاه أبي بن خلف فيقول: يا محمد إن عندي العود فرسًا أعلفه كل يوم، أقتلك عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بل أنا أقتلك إن شاء الله" فلما كان يوم أحد، وأسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أبي بن خلف وهو يقول: أي محمد لا نجوت، فقال القوم: يا رسول الله، أيعطف عليه رجل منا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «دعوه» فلما دنا تناول رسول الله صلى الله عليه وسلم الحربة من الحارث بن الصمة، فلما أخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم منه انتفض بها انتفاضة تطاير عنه من حوله تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض بها، ثم استقبله فطعنه في عنقه طعنة تدأدأ منها عن فرسه، فلما رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشًا غير كبير، فاحتقن الدم، قال: قتلني والله محمد..(السيرة النبوية لابن هشام (93/3، 94).

وعن جابر بن عبد الله أنه غزا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل نجد فلما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم قفل معه فأدركتهم القائلة في واد كثير العضاه فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرق الناس يستظلون بالشجر فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت سمرة وعلق بها سيفه ونمنا نومة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعونا وإذا عنده أعرابي فقال إن هذا اخترط علي سيفي وأنا نائم فاستيقظت وهو في يده صلتا فقال من يمنعك مني فقلت الله ثلاثا ولم يعاقبه وجلس. (رواه البخاري).

تلك هي الثقة التي نحتاج إليها فما جاء عن الله وثقنا به وإن غمز الغامزون، واستبعده المنافقون.

(15)

ثالث عشر: يوم رباني في حياة الحبيب صلى الله عليه وسلم

د : أكـرم كسـاب

أصدق ما يقال عن النبي صلى الله عليه وسلم: كانت حياته كلها لله، وقد أمر ربه بذلك فقال له:(قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ) الأنعام: 162، 163)، وقد قالت عائشة: كان النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الله على كل أحيانه. (مسلم).

وإذا أردنا أن نرقب النبي صلى الله عليه وسلم في يوم من أيامه لأدركنا هذا المعنى جليا، فهو قريب من ربه في ليس في محراب صلاته فحسب؛ وإنما في كل حسكون وحركة، وفي كل همسة ونبسة، وفي كلمة ولفظة، وفي كل قول وفعل.

في مسائه وصباحه... وفي حله وترحاله... وفي غدوه ورواحه... وفي أفراحه وأتراحه... وفي عسره ويسره... وفي أخذه وعطائه... وفي ضحكه وبكائه...

بل أكثر من ذلك فقد كان صلى الله عليه وسلم قريبا من ربه في يقظته ونومه.

وها هي حياته صلى الله عليه وسلم في أحد أيامه... وكأني به صلى الله عليه وسلم -بأبي هو وأمي- وقد استيقظ من نومه، فأدرك نعمة الحياة بعد النوم أو الموتة الكبرى فكان أول ما يقوله هو:" الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا واليه النشور"(مسلم). ويقول:"الحمد لله الذي عافاني في جسدي، ورد عليّ روحي، وأذن لي بذكره"(الترمذي).

ومع حمده ربه على نعمة الحياة، ونعمة المعافاة، لا ينسى حمده على إذنه له بذكره، فكما أن الحياة ليست بيد بشر، ولا المعافاة بيد مخلوق، فالذكر كذلك لا يتم للعبد إلا إذا أذن به الخالق...

فإذا صلى صلاته، شرع في أذكار صباحه، وهي أوراد وأذاكار؛ ما بين تسبيح وتحميد، وتكبير وتهليل، وثناء ودعاء، وذكر وشكر، وتضرع وتبتل،

وخشوع وخضوع، وذل وانكسار... من مثل قوله: "أصبحنا وأصبح الملك لله، والحمد لله لا إله إلا الله وحده لا شريك له..." (مسلم).. ويقول: "سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلمته"(مسلم). ويقول:قوله:"أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبيننا محمد صلى الله عليه وسلم.. وملة أبينا إبراهيم حنيفا ولم يكن من المشركين" (أحمد). ويقول: "رضيت بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيا ورسولا" (أحمد).

وانظر إلى جميل هذه الكلمات، وبديع ما فيها من حمد الله تعالى؛ لا على نعمائه عليه فحسب؛ وإنما حمد متواصل على كل نعمة أنعم بها على مخلوق يعرفه أو لا يعرف؛ " اللهم ما أصبح بى من نعمة أو بأحد من خلقك؛ فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر" (ابن حبان).

فإذا طعم طعاما حمد ربه ما أطعم وما سقى، وما آوى وما كفى... فيقول:" الحمد لله كثيرا طيبا مباركا فيه غير مكفي ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا"(البخاري)، ويقول:" الحمد لله الذي كفانا وأروانا غير مكفي ولا مكفور" وقال مرة:"الحمد لله ربنا غير مكفي ولا مودع ولا مستغنىً ربنا"(البخاري).

يعلق الغزالي على هذا الثناء ويقارن بينه وبين غير المسلم فيقول: إن هناك أناسًا يملؤون أجوافهم بالطعام والشراب، ثم يمضون لشأنهم ما يدرون أن لله عليهم حقًا، إنهم كأي دابة دسّت فمها في مِزْوَدِها حتى شبعت وحسب، وهذا السلوك الدنيء لا يليق بمؤمن. (فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء/ محمد الغزالي/ ص 32).

فإذا أراد الخلاء؛ ليفرغ ما في بطنه من الأذى، دخل قائلا:" أعوذ بك من الخبث والخبائث"(البخاري)، فإذا خرج قال:"الحمد لله الذي أذاقني لذته، وأبقى في قوته، وأذهب عني أذاه"(البيهقي).

وقد أحسن الغزالي حين قال: لكأن هذه الكلمات وضعها نفر من علماء الطب والأخلاق والبلاغة ... فإنها ذكرت فضل الله فيما يسر من طعام شهي، وفيما ادخره البدن من أسباب حياته ونمائه، ثم فيما استبعده هذا البدن من نفايات تضر ولا تسر. أرأيت أجمل من هذا الحمد، وأرق من هذا السرد؟ إن النبي الإنسان دائم الاستحضار لآلاء الله مسارع إلى شكرها ما استطاع. (فن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء).

وله مع كل فعل ذكر.. فإذا خرج من بيته أو دخل له دعاء وذكر... وإذا دخل المسجد أو خرج له دعاء وذكر... وإذا دخل السوق له دعاء وذكر... وإذا رأى مبتلى له دعاء وذكر... وإذا ركب دابته أو نزل له دعاء وذكر... وإذا سافر أو رجع له دعاء وذكر... وإذا هنأ مسرورا، أو زار مريضا، أو عزى أخا له دعاء وذكر... وإذا غادر أو قفل... وإذا دخل قرية أو ارتحل... وإذا غزا أو غنم....

ثم هو مع كل تغير طارئ، وجديد حادث في الكون يتعبد لربه، مع هذا الكون من حوله، فللرياح ذكر.. وللمطر ذكر.. وللرعد ذكر.. وللبرق ذكر.. وولللهلال ذكر.. وللرعد ذكر..

ثم هو في صلاته لربه في تواصل كامل لا يحب أن تكون له الدنيا بهذه الركعات....

وبعد هذا كله إذا أوى إلى فراشه قال:" باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين" (الترمذي).

ويقول:"اللهم باسمك أحيا، وباسمك أموت"(مسلم).

ويقول:" اللهم أسلمت نفسي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رهبة ورغبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت... (متفق عليه).".

وها هي أعلى درجات العبودية تظهر، وأسمى علامات الاستسلام تعلن، فهو وإن توجه إلى نومه لكن العبودية المطلقة لا بد وأن يقر بها، ولذلك قال صلى الله عليه وسلمك للبراء بن عازب – رواي الحديث- " فإن مت مت على الفطرة".

ولا ينقطع ذكره صلى الله عليه وسلم لربه حتى بعد نومه، فهو كما قالت عنه الملائكة: ما رأينا عبدا قط أوتي مثل ما أوتي هذا النبي إن عينيه تنامان وقلبه يقظان.. (الترمذي). وكما قال هو عن نفسه:" إن عيني تنامان ولا ينام قلبي" (البخاري).

ولذلك كان إذا استيقظ من الليل قال:"لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علما، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب"(أبو داود).

ثم بعد ذلك يأخذ من الليل ما فرضه الله عليه....

فصلّ اللهم وسلم وبارك على حبيبك محمد صلى الله عليه وسلم.

(16)

وأخيرا..... وليس آخرا!!

د : أكـرم كسـاب

وبعد هذا التطواف أيها القارئ الحبيب مع النبي صلى الله عليه وسلم في علاقته بربه؛ فهذا ليس كل شيء في هذه العلاقة، وإنما هو غيض من فيض، وقطرة من بحر، وقليل من كثير، وإن السيرة النبوية لمليئة بما يميز هذه العلاقة الراقية، التي تصور حياة محمد صلى الله عليه وسلم فتجعل منه العابد الأول، الذي ما أحب أحد ربه مثله، ولا أحب ربه أحدا مثله، فهو حبيب الحق بلا منازع، وخير الخلق بلا ريب...

لكن هذا الحب الدافق أثمر عبادة راقية قوّت هذا الحب وزادت منه، ولم تكن هذه العبادة لتنقطع طرفة عين؛ بل كانت عبادة مستمرة متوازنة، لم يهمل النبي صلى الله عليه وسلم بسببها حق واحد من الخلق.

ولم تُحدث هذه العبادة على شمولها واستمرارها مللا أو كللا؛ بل كانت منشأ السعادة، وسبب الراحة، وعامل الطمأنينة.

وقد حرص صاحبها أن يهدي الخلق إلى ما هدي إليه، ليتذوقوا ما ذاق، ويقطفوا من الجني الذي جنى، والثمر الذي قطف، والشهد الذي طعم، لذا حرص كل الحرص على دلالة الخلق إلى خالقهم، ليكون شاكرا لأنعمه وما اجتباه، وهو على يقين من كل ما وعده به ربه سبحانه....

وأخيرا: فأرى أننا بحاجة إلى قراءة هذه العلاقة بروح المحب... ليتولد لدينا ارتباط حقيقي بهذه الشخصية العظيمة فنجعل منها قدوة حقيقة تقودنا لخير الدنيا والآخرة...

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يبارك هذا العمل، وأن يكتب له القبول، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم، وأن يبارك في كاتبه... وناشره... وقارئه... والحمد لله أولا وآخرا.. و(لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (القصص:70).